العنوان:	ابن حزم الأندلسي: الحب فاق الحقد بعد ألف عام
المصدر:	الموقف الأدبي
الناشر:	اتحاد الكتاب العرب
المؤلف الرئيسي:	خلايلي، غالب
المجلد/العدد:	مج47, ع563
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2018
الشهر:	آذار
الصفحات:	35 - 44
رقم MD:	883812
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد، ت. 456 هـ.، الشعر الأندلسي، الأدب الأندلسي، تراجم الأدباء
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/883812

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

للإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

خلايلي، غالب. (2018). ابن حزم الأندلسي: الحب فاق الحقد بعد ألف عام.الموقف الأدبي، مج47, ع563 ، 35 - 44. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/883812

إسلوب MLA

خلايلي، غالب. "ابن حزم الأندلسي: الحب فاق الحقد بعد ألف عام."الموقف الأدبيمج47, ع563 (2018): 35 - 44. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/883812

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

ابن حزم الأندلسي
الحبّ فاق الحقدَ بعد ألف عام

د. غالب خلايلي*

إمام فقيه، وأديب شاعر، وعالم فيلسوف، ووزير مثقّف، عاش قبل ألف عام عيشةً مترفةً في قصور الأندلس، ونهل العلم الصافي حتى صار من أكبر علماء الإسلام تأليفاً وتصنيفاً. لكنّ القَدَر أبى أن تتمّ النعمة عليه، ليُسجن وتُحرق أرضه ودوره وكتبه. إنه صاحب (طوق الحمامة في الإلفة والألاف) الإمام أبو محمد عليّ بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد القرطبي الأندلسي الظاهري، المولود في قرطبة 30 رمضان 384هـ (7 نوفمبر 994 م) والمتوفّى عن سبعين عاماً يوم 28 شعبان 456 هـ (15 آب 1064 م).

أولا - حكاية الحبّ وحياة النعيم عند ابن حزم:

عاش عليّ حياته الأولى في قرطبة بصحبة أخيه الأكبر أبي بكر، في قصر أبيه القريب من قصر الحاكم. ولا عجب، فأبوه هو الوزير الأموي المقرّب عند الخليفة المنصور بن أبي عامر، ثم ابنه المظفر وأخيه من بعده. كانت أسرته، وهي من أقدمها في الإسلام، تعيش في كَنَف البيت الأموي في دمشق، وكان جدّه خلف أول من دخل الأندلس من أسرته بصحبة الأمير عبد الرحمن الداخل، فاحتلّت الأسرة مكانتها الرفيعة في عهد المستنصر.

"نشأ ابن حزم في بُحبوحة من العيش، وعزٍّ من السلطان. وكان يعتز بأنه طلب العلم لذات العلم. وقد قال له الباجيُّ أحد كبار فقهاء الأندلس: "إنك نلتَ العلم، وأنت تسهر بمشكاةٍ من الذهب، وأنا أسهر بقنديل بائتاً بالسوق"، فرد ابن حزم: "إنك طلبت العلم، أنت في هذه الحال، رجاءَ تبديلها بمثل حالي، وأنا طلبتُه لم أرجُ به إلا علوَّ القدْر العلميّ في الدنيا والآخرة". استُحفظ عليّ القرآن في بيته، حفَّظته إياه الجواري. يقول في ذلك: "لقد شاهدتُ النساء، وعلمتُ من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري، لأني رُبّيت في حجورهن، ونشأتُ بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن، ولا جالستُ الرجال إلا وأنا في حد الشباب، وهنّ علّمنني القرآن، وروّينني كثيراً من الأشعار، ودرّبنني في الخط". وهذا السياق يدلّ على أن الجواري كنّ مثقفّات ثقافة واسعة، وأنه تربّى

* أديب من سوريا.

كما يتربى أبناء الأمراء، حفظ القرآن، وتعلّم علومه ومعانيه، وحفظ قدراً من الشعر، واتجه إلى أفاضل الشيوخ يأخذ من مناهلهم الندية" 1.

كان للأب أحمد بن سعيد دورٌ كبير في حياة ابنه، فهو الرجل ذو الصفات الفاضلة، رجاحةَ عقلٍ، وعمقَ معرفةٍ، ودهاءً ورجولةً وولاءً للأمراء الأمويين، فاستوزره المنصور سنة 381 هـ/991 م، وبلغ من ثقته به أن استخلفه على المملكة أوقات غيابه عنها. وكانت له مكتبةٌ نفيسة جداً، ومجلسٌ يحضره العلماء والشعراء، إذ كان ذا باع طويل في الشعر واللغة والبلاغة والأدب، وكذا في الفتوى وعلم اللسان، تدور عنده محاضرات ومناظرات، وكل هذا ترك أثره على الولد عليّ، فتمكّن في اللغة والشعر، وفي الفتوى وتفسير نصوص القرآن والسنّة على ظاهر اللغة (المنهج الظاهري) مع أنه كان مالكيّ المذهب.

كتاب (طوق الحمامة في الإلفة والألاف) أروع كتب الحب:

مخطوطة طوق الحمامة في مكتبة جامعة لايدن

طابع بريدي إسباني في ذكرى ألفية ابن حزم

هذا الكتاب هو أروع كتاب دَرَسَ الحبّ في العصر الوسيط، في الشرق والغرب، والعالمين الإسلامي والمسيحي. كتبه ابن حزم إجابةً لطلب صديقٍ له بأسلوبٍ من النثر الفني البديع، وضمّنه الكثير من شعره، وفيه درس النفس الإنسانية فيما تحبّ وتألف.

يقول ابن حزم في ماهية الحب: الحب - أعزّك الله - أوّلُه هزلٌ وآخره جِدٌّ. دقّت معانيه لجلالتها عن أن توصف، فلا تُدرك حقيقتُها إلا بالمعاناة. وليس بمنكرٍ في الديانة، ولا بمحظورٍ في الشريعة، إذ القلوبُ بيد الله عزوجل. **والحبّ استحسانٌ روحاني، وامتزاجٌ نفساني** يجعل المحبَّ يأنس بحبيبه ويسكن إليه، كما جاء في قوله تعالى: (**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم من نفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**) (الأعراف/ 189). ومن الدليل على ذلك أنك لا تجد اثنين يتحابان إلا وبينهما مُشاكَلَةٌ واتفاقٌ في الصفات الطبيعية، لا بد من هذا وإن قلّ، وكلّما كثرت الأشباهُ زادتِ المجانسةُ وتأكّدتِ المودة، فانظرْ هذا ترَهُ عِياناً، وقول رسول الله ص يؤكّده: (**الأرواحُ جنودٌ مُجنّدة ما تعَارفَ منها ائتلف، وما تناكرَ منها اختلف**). وفي الرسالة يبيّن الكاتب مراتبَ الحب، ويثبّت أن **أعلاها ما بني على الارتباط**

الروحي، ويفرّق بين الحب والاشتهاء، **فالحبّ لا يكون إلا لواحد، أما الاشتهاء فيكون لغير واحد.**

وقد قسم ابن حزم كتابه إلى ثلاثين باباً:

- **في أصول الحب عشرة أبواب:** باب في ماهية الحب، وباب في علامات الحب (إدمان النظر، والإقبال بالحديث عن المحبوب، والإسراع بالسير إلى المكان الذي يكون فيه، والاضطراب عند رؤيته فجأة، وحبّ أهله وقرابته وخاصته حتى يكونوا أحظى لديه من أهله ونفسه، والوحدة والأنس بالانفراد، والسهر والبكاء). وباب من أحب في النوم، ومن أحب بالوصف، ومن أحب من نظرة واحدة، وباب من لا تصح محبته إلا مع المطاولة، وباب التعريض بالقول، وباب الإشارة بالعين (وهي أبلغ الحواس وأصحها دلالة)، وباب المراسلة، وباب السفير (الوسيط بين المحبوبين).
- **في أعراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة اثنا عشر باباً:** باب الصديق المساعد، وباب الوصل، وباب طي السر، وباب الكشف والإذاعة، وباب الطاعة، وباب المخالفة، وباب من أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها ممّا يخالفها، وباب القنوع، والوفاء، والغدر، والضنى، وباب الموت.
- **في الآفات الداخلة على الحب ستة أبواب:** باب العاذل، وباب الرقيب، وباب الواشي، وباب الهجر، وباب البين، وباب القنوع، وباب السلوّ (اليأس).
- **وأخيراً بابان ختاميان وهما:** باب الكلام في قبح المعصية، وباب في فضل التعفف.

طوق الحمامة طوق نجاة ابن حزم:

يقول كاتب: "لو بُعثَ ابن حزم، وقيل له: إن كتابه في الحب قد صدرت منه عشرات الطبعات، في حين فُقِدت مؤلفاته الأخرى في الفقه والسياسة، فلربما فقد عقله! ذلك أن ابن حزم كتب هذا الكتاب ذا الطابع الرومانسي في مقتبل عمره، ولم يعد إلى مثله أبداً. فقد شغلته انشغالات أخرى منها الوزارة التي وُلّيها مرتين، ومنها السياسة التي أحرقته في أتونها. ومع أن الباحثين يحصون له ما لا يقل عن 400 مؤلف، إلا أن **طوق الحمامة** كان طوق نجاته الوحيد وطوق عبوره إلى زماننا الراهن". 2

وهذه هي قصة (الحبّ) المثيرة والشاقّة للكتاب، حسبما يرويها محقّق له، ولولاها لبقي الكتاب مدفوناً:

"في نهاية النصف الأول من القرن 17، هبط الآستانة سفيرٌ مستشرقٌ يُدعى **فون وانر**، يمثل **هولندة** لدى بلاط آل عثمان بين (1644 -1665م)، فولّى وجهه شطر المخطوطات العربية، وقد أُشرِب حبَّها طالباً جادّاً في مدرسة المستعربين الشهيرة في ليدن، ينسخها ويشتريها، فوجد في عاصمة الخلافة ذخائر لا تنفد من التراث العربي، مما جاء بها السلاطين نهباً، أو نقلها العسكريون سطواً. وصادف أن توفي على أيامه حاجي خليفة الشهير، وكان يملك واحدة من كبريات مكتبات الآستانة، جمعها أثناء عمله في الجيش العثماني، فاشترى وانر منها ومن غيرها كتباً كثيرة بلغت **ألف مخطوط**، بين عربي وفارسي وتركي وعبري، اشتملت على شتى العلوم، من لغة وأدب وتاريخ، وشريعة

وفلسفة وطب، ثم أهدى ذلك كله إلى جامعة ليدن في هولندة.

وكان "طوق الحمامة" بين هذه المخطوطات النادرة التي بقيت مجهولة قرابة 175 عاماً، حتى عهدت الجامعة مع مطلع القرن 19 إلى عدد المستشرقين بفهرسة المخطوطات العربية، وكان من نصيب المستشرق الهولندي **رينهارت دوزي**، المتخصص في الدراسات الأندلسية، أن يكشف نسخة "طوق الحمامة" في أول طبعة تصدر لفهرس المخطوطات العربية في جامعة ليدن. وعندما نشر دوزي كتابه "تاريخ مسلمي إسبانيا"، عام 1861، نقل من كتاب "طوق الحمامة" الصفحات المتصلة بقصة حب ابن حزم الأولى، وترجمها في فرنسية عذبة، فذاعت في كل أنحاء أوروبا. وعن دوزي ترجمها إلى الألمانية **فون شاك**، في كتابه "شعر العرب وفنهم في إسبانيا وصقلية"، وعنه ترجمها الروائي الأديب **خوان فاليرا** عندما ترجم الكتاب كله إلى الإسبانية، ثم جاء من بعده مواطنه **بونس بويجس** فترجمها إلى الإسبانية ثانية، من اللغة العربية مباشرة. وقد حاول بونس هذا، ومن بعده العالم الإسباني الجليل **ميجيل أسين بلاثيوس**، أن ينشر النص العربي، لكن الموت اختطف أولهما في سن فتيّة، فيما شُغل الثاني بكتاب **"الفصل في الملل والأهواء والنِّحَل"** لابن حزم، وهو أقرب إلى اهتماماته الفلسفية.

وفي صيف 1907 سافر **المستشرق الروسي الشاب بتروف** إلى مدينة توبنجين في ألمانيا، ليلقى الأستاذ **زاييولد**، وكان المستشرق الألماني الوحيد المتخصص في الدراسات الأندلسية، فحمل بتروف على أن ينشر النص العربي لطوق الحمامة. وعاد المستشرق إلى مقره في بطرسبرج، وكان يعمل أستاذاً في جامعتها الإمبراطورية، فأصدر **الطبعة الأولى للنص العربي كاملا**، في سلسلة الكتب التي تنشرها كلية الآداب، في جامعة بطرسبرج، وطبع في مطبعة بريل العربية الشهيرة في ليدن عام 1914، غير أن النص العربي ظل محدود الانتشار، ومع هذا أثار اهتمام المستشرقين كافة.

نشر بتروف الكتاب عن مخطوطة وانر، تلك التي نسخها ناسخٌ أولع بالنص، وفرح بقدرته على إكمال نسخه بعد وفاة ابن حزم بثلاثة قرون. وسجل على نفسه أنه: "حذف أكثر أشعارها، وأبقى العيون منها، تحسيناً لها، وإظهاراً لمحاسنها، وتصغيراً لحجمها، وتسهيلاً لوجدان المعاني الغريبة من لفظها".

قام **محمد ياسين عرفة**، صاحب مكتبة عرفة في دمشق، بطبع النص العربي ثانية، عام 1349هـ/ 1930م، وصدّره بفقرات مقتبسة ومترجمة عن مقدمة بتروف، وقدم له الشاعر الكبير محمد البزم. وفي عام 1949 ظهرت الطبعة العربية الثالثة قام عليها المستشرق الفرنسي **ليون برشيه**، وكان يعمل أستاذاً في كلية الآداب بجامعة الجزائر، وقد بذل جهداً طيباً في تصحيح الأخطاء. وبعد عام واحد، طبع الأستاذ **حسن كامل الصيرفي** الكتاب للمرة الرابعة في القاهرة، عام 1950، وأفسد الطابع ضعف ما أصلح الناشر، فكان من الضروري أن يتقدم دارس ليصنع من أجل "طوق الحمامة" شيئاً، ووجدتني (المحقّق) مدفوعاً إلى هذا العمل. 3

كتاب الأخلاق والسير، رسالة في مداواة النفوس(5):

وهو كتاب ثانٍ من كتب ابن حزم، لا أدري قصة وصوله إلينا، لكنه حِكَمٌ مكثفة، ودروس مهمة في الحياة، لا تصدر إلا عن عالم ذي معرفة. وقد اعتمد فيها على ما كان مشهوراً عند العرب من فلسفة أرسطو، وعلى تجاربه الخاصة، فكانت الرسالة شاملة للنظرة الفلسفية، والناحية العملية، وقد اشتملت على حكم ووصايا رائعة، وهذه شذرات من أقواله:

- لذة العاقل بتمييزه، ولذة العالم بعلمه، ولذة الحكيم بحكمته، ولذة المجتهد لله عز وجل باجتهاده، **أعظم** من لذة الآكل بأكله، والشارب بشربه، والواطئ بوطئه، والكاسب بكسبه، واللاعب بلعبه، والآمر بأمره. وبرهان ذلك أن الحكيم والعالم والعاقل والعامل واجدون لسائر اللذات التي سمينا كما يجدها المنهك فيها، ويحسّونها كما يحسّها المقبل عليها، وقد تركوها وأعرضوا عنها وآثروا طلب الفضائل عليها، وإنما يحكم في الشيئين من عرفهما، لا من عرف أحدهما ولم يعرف الآخر.
- العاقل لا يغتبط بصفة يفوقه فيها سبع أو بهيمة أو جماد. وإنما يغتبط بتقدمه في الفضيلة التي أبانه الله بها عن السباع والبهائم والجمادات، وهي التمييز الذي يشارك فيه الملائكة.
- من طلب الفضائل لم يساير إلاّ أهلها، ولم يرافق في تلك الطريق إلا أكرم صديق من أهل المواساة والبرّ والصدق وكرم العشيرة والصبر والوفاء والأمانة والحلم وصفاء الضمائر وصحة المودة.
- ومن طلب الجاه والمال واللذات لم يساير إلا أمثال الطِّلاب: الكلبة والثعالب الخُلْبة، ولم يرافق في تلك الطريق إلا كل عدو في المعتقد خبيث الطبيعة.
- رأيت من غمار العامة من يجري من الاعتدال وحميد الأخلاق إلى ما لا يتقدمه فيه حكيم عالم رائض لنفسه، ولكنه قليل جداً. ورأيت ممن طالع العلوم وعرف عهود الأنبياء عليهم السلام ووصايا الحكماء، وهو ما يتقدمه خبث السيرة وفساد العلانية والسريرة شرار الخلق. وهذا كثير جداً.
- الرغبة طمع مستوفى متزايد، ولولا الطمع ما ذلّ أحد لأحد.
- من اكتفى بقليله عن كثير ما عندك، فقد ساواك في الغنى ولو أنك قارون، حتى إذا تصاون في الكسب عما تشره أنت إليه فقد حصل أغنى منك بكثير.
- السعيد كل السعيد في دنياه من لم يضطرّه الزمان إلى اختبار الإخوان.
- الوجع والفقر والنكبة والخوف لا يحسّ أذاها إلاّ من كان فيها، وفساد الرأي والعار والإثم لا يعلم قبحها إلاّ من كان خارجاً عنها.
- الأمن والصحة والغنى لا يعرف حقها إلاّ من كان خارجاً عنها. وجودة الرأي والفضائل وعمل الآخرة لا يعرف فضلها إلا من كان من أهلها.

ثانياً - حكاية الحقد الذي أودى بابن حزم:

لازم ابنَ حزم حياً وميْتاً كثيرٌ من قصص الحقد، ابتدأت معه يوم عزل أبوه من منصبه، وامتدت إليه إماماً للمذهب الظاهري، ومؤرخاً

له رؤيته، ولم تنته القصص حتى بعد وفاته، إذ جرده كثيرون من عروبته.

عزل أبيه ووفاته:

لم يدم العيش الناعم لابن حزم، إذ تبدّلت حال أبيه الوزير، وقديماً قال الحكماء: **"من أكل من مال السلطان فقد سعى بقدمه إلى دمه"**. وكانت وزارة أبيه في آخر عهد الأمويين بالأندلس، أي وقت أن ضعفت أيديهم عن الاستمساك بصولجان الحكم، فأُنزل أبوه من منصب الوزير في عهد المهدي، وبعد اغتيال الأخير امتُحن بالاعتقال والسجن والتغريب ومصادرة الأموال، حتى مات وهو في هذه الشدة. وهكذا راحت الفتن والنكبات تتوالى على بني حزم. وهذا هو الفتى الناعم يقص حكاية النقمة بعد النعمة: "شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات، وباعتداء أرباب دولته، وامتُحنَّا بالاعتقال والتغريب، والإغرام الفادح والاستتار، وأرْزَمَت الفتنة، وألقت باعها، وعمّت الناس وخصّتنا، إلى أن توفي أبي الوزير - رحمه الله - ونحن في هذه الأحوال بعد العصر لليلتين بقيتا من ذي القعدة عام اثنتين وأربعمائة".

استمرت الشدة بعد وفاة أبيه، وأخذ يحملها وحده، وتتابعت الشدائد، حتى أخرجوا من قرطبة مكان عزهم، ويقول في ذلك: "وضرب الدهر ضرباته، وأجلينا عن منازلنا، وتغلب علينا جند البربر، فخرجت عن قرطبة أول المحرم عام أربعة وأربعمائة".

نزلت هذه الشدائد والغلام لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، وقد صقلته، وكانت ابتداء حياة جديدة له، فقد انتقل من غلام ناعم، إلى رجل مكافح مناضل، يخاصم في الفقه، فيصب على خصمه الجندل، ويَسيطه ماء الخردل، كما وصفه معاصروه. 1

المذهب الظاهري:

انصرف ابن حزم إلى العلم بكليته، واختاره من بعد بإرادته، ليعوّض عن منصب الوزارة عرش العلم، فأخذ يدرس الحديث ويرويه، يأخذه من الشيوخ والكتب، حتى حصل على أكبر مجموعة من علم الرسول ص، ومن فقه الصحابة. ثم أخذ يدرس الفقه، ووصل فيه إلى القمة، وكان يحب منه ما يكون ضاحياً واضحاً، ولذلك اكتفى بأخذ الأحكام من النصوص، من غير بحث عن علة لها، ولا تعرّف لغاياتها، فاختار **المذهبَ الظاهريّ** له مذهباً، وكان إمامه الثاني، بعد إمامه الأول داوود الظاهري الأصفهاني. وقد تشدّد فيه أكثر من صاحبه، وساعده على التشدد إحاطته الواسعة بأحاديث الرسول ص، إذ أتاه الله حافظة واعية، وجلداً في طلب العلم جعله يستوعب أكبر قدر من علم السنة، والآثار، واختلاف الفقهاء، وأكبر قدر من رواية الشعر، وأخبار التاريخ، وكان مع هذا الاستيعاب حاضر البديهة. كان ابن حزم ينادي بالتمسك بالكتاب والسنّة وإجماع الصحابة ويرفض الأخذ بالرأي في الأحكام الشرعية، ولا يحاول تعليل النصوص، بل يرفض ذلك رفضاً باتاً، ولا يقبل القياس والاستحسان والمصالح المرسلة التي يعدّها محض الظن. وهو ما أشار إليه بقوله: **والأصل في كل بلاء وعماء وتخليط وفساد، اختلاط الأسماء، ووقوع اسم واحد على معان كثيرة.**

والحقيقة هي أن ابن حزم كان صاحب مشروع كامل لإعادة تأسيس الفكر الإسلامي.

حرق كتب ابن حزم:

كان عليّ ابن حزم أمويّ النزعة في وقت زال فيه سلطان الأمويين، وكانت كتاباته في الفقه والتاريخ واسعة، فراح يدوّن حوادث عصره بما يراه، لا يهمّه رضا أحد أو سخطه. كما كان حاد اللسان، حتى قيل عنه: "سيف الحجاج ولسان ابن حزم شقيقان"، وهذه الحدّة أورثت نفوراً ضده، وكثر أعداؤه، فألبوا عليه المعتضد بن عباد أمير إشبيلية، فأصدر قراراً بهدم دوره، ومصادرة أمواله، وإحراق كتبه، ولما فعلوا ذلك تألم كثيراً فقال:

وإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي
تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يقيم معي حيث استقلّت ركائبي
وينزل إذ أنزل ويدفن في قبري
دعونيَ من إحراق رقٍّ وكاغد
وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
كذاك النصارى يحرقون إذا علت
أكفّهم القرآن في مدن الثغر

ولم تكن النقمة عليه من الأمراء فحسب، بل كانت أيضاً من العلماء، فقد كان أكثر علماء الأندلس يعدّ مذهب الإمام مالك ديناً، ويعدون مالكاً فوق قدر الرجال، حتى إن الشافعي رضي الله عنه بلغه أنهم كانوا يستسقون بقلنسوةٍ للإمام مالك، فهاجم ابن حزم مذهب مالك، وكلما ازداد استنكارهم ازداد عنفاً وحدةً على المذهب المالكي، فكثر الأعداء، وقلّ النصراء، حتى قال فيه بعض معاصريه: **"علم العلم ولم يعلم سياسة العلم"**، ولم يعش بعد ذلك طويلا.

ولكن لماذا كانت هذه الحدة؟ لم تنشأ الحدة مع ابن حزم كطبع، فقد كان هادئ النفس، مشرق القلب، حتى بعد أن نزلت النكبات في أسرته، وهذا يبدو من كتابه "طوق الحمامة" الذي كتبه بين الثالثة والثلاثين والأربعين من العمر، وكتابه "مداواة النفوس". ولكن اعترته الحدة لمرض أصابه، يقول فيه: "أصابتني علّة شديدة ولّدت فيّ ربواً (كبراً) في الطحال شديداً، فولّد ذلك عليّ من الضجر، وضيق الحال، وقلة الصبر والنزق أمراً حاشت نفسي فيه إذا فكرت تبدّلَ خلقي، واشتدّ عجبي من مفارقتي لطبعي، وصحّ عندي أن الطحال موضع الفرح، وإذا فسد تولّد ضده". 2 -3

التشكيك بأصله العربي:

لفتت المستشرق الهولندي دوزي حكاية عاطفية رومانسية رواها ابن حزم في (طوق الحمامة) تتصل بحبه لجارية في منزله اسمها نُعَم، استنتج منها أن هذا الحب غير مألوف عند العرب وغريب عن طباعهم. وهذه هي الحكاية بلغة ابن حزم نفسه: "كنت أشد الناس كلفاً وأعظمهم حباً بجارية لي كان في ما خلا، اسمها نُعَم، وكانت أمنيةَ المتمنّي، وغاية الحُسن خَلقاً وخُلقاً وموافقة لي، وكنت أبا عذرها، وكنا قد تكافأنا المودة، ففجعتني بها الأقدار واخترمتها الليالي ومرّ النهار، وصارت ثالثة التراب والأحجار، وسنّي حين وفاتها دون عشرين سنة، وكانت هي دوني في السن. فقد أقمتُ بعدها سبعةَ أشهر لا أتجرّد عن ثيابي، ولا تفتر لي دمعةٌ على جمود

عيني وقلة إسعادها. وعلى ذلك فوالله ما سلوتُ حتى الآن، ولو قُبِل فداءٌ لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف، وببعض أعضاء جسمي العزيزة عليّ مسارعاً طائعاً، وما طاب لي عيش بعدها، ولا نسيتُ ذكرها، ولا أنِستُ بسواها. ولقد عفا حبي لها على كلّ ما قبله، وحَرَّم ما كان بعده".

حين وقف دوزي على هذه القصة الرقيقة استكثرها على العرب والمسلمين، برغم أن الرجل علماني لا يحب الكنيسة، وقال إن هذا الغزل العف لا تعرفه الأخلاق العربية، ولا الديانة الإسلامية، وإنه تحدّر إلى ابن حزم إرثاً من أجداده الأوَل المسيحيين، إذ "يبقى دائماً في أعماق أرواحهم شيء صافٍ رهيفٌ وروحي غير عربي". وإن الصفحات التي خط عليها ابن حزم جانباً من سيرته، تؤكد "إسبانيته" في عمق: الشموخ والعاطفية والعنف وطلاقة اللسان واستقامة الكلمة والوفاء وتحليق الروح نحو الله، والقسوة في نقد الوطن وحب الحقيقة، والحماسة التي تبلغ حد التضحية بالحياة دفاعاً عن أفكاره وشرفه وكراهية النفاق والصلابة في الشدائد... كلها صفات إسبانية عريقة".

وتصدى له ميجيل أسين بلاثيوس في دراسته عن ابن حزم، وكان أسقفاً، فوضع كل شيء في مكانه الصحيح، بقدر ما تتيح الكنيسة لرجالها من حرية الرأي والتفكير. لقد سدّد بلاثيوس ضربة موجعة لهؤلاء الباحثين عندما ذكّرهم بأن **العذرية "صناعة عربية"**، فلماذا نبحث عنها في تراثنا الإسباني ولا نبحث عنها في تراثه هو، أي التراث العربي الذي أينعت فيه هذه النزعة ونمت وقدمت لتراث العشق الإنساني كله نماذج معروفة خالدة؟ يرى بلاثيوس أنه ومنذ العصر الجاهلي ظهر في الصحراء العربية لون من الغزل العاطفي، عنيف وروحي، لدى قبيلة بدوية عرفت كيف تسمو بفهمها إلى أدل ما يمكن أن يتصوّر من الحب البشري. **فبنو عذرة**، يفضلون الحزن الحلو المستسلم المشوّق في الحب الأفلاطوني على العواطف الحادة للغرائز الحيوانية البهجة، ويعرفون كيف يموتون من الحب قبل أن يدنّسوا بالشهوة الملول المشبعة عرس الأرواح العفيفة. لقد تغنّى أعظم شعرائهم إلهاماً في قصائد تفيض رومانسية، بالحلاوة المرّة، للرغبة الكظيمة إلى الأبد، وكان جميل النموذج الكامل الذي تحقق فيه العفة المثالية. لقد مات من الحب دون أن يجرؤ يوماً على أن يمسّ بيده محبوبته بثينة". 3 -4

ابن حزم يبكي ديارهم في قرطبة (6):

"وقفت على أطلال منازلنا بحومةِ بلاطِ مغيث من الأرباض الغربية، ومنازلِ البرابر المستباحة عند معاودة قرطبة، فرأيتها قد مَحَت رسومُها، وطُمستْ أعلامُها، وخفيت معاهُدها، وغيّرَها البلى، فصارتْ صحاريَ مجدبة بعد العمران، وفيافيَ موحشةً بعد الأنس، وآكاماً مشوّهة بعد الحُسن، وخرائبَ مفزعةً بعد الأمن، ومآويَ للذئاب، وملاعبَ للجان، ومغانيَ للغيلان، ومكامنَ للوحوش، ومخابئَ للصوص، بعد طول غنيانها برجال كالسيوف، وفرسانٍ كالليوث، تفيض لديهم النِّعَم الفاشيةُ، وتغصُّ منهم بكثرة القطين الحاشيةُ، وتُكنِّس في مقاصيرهم ظباء الأُنس الفاتنة، تحت زِبْرجٍ من غضارة الدنيا تذكّر نعيم الآخرة، حال الدهر عليهم بعد طول

النضرة، فبدَّد شملهم حتى ساروا في البلاد أيادي سَبا، تنطق عنهم الموعظة.

فكأنّ تلك المحاريبَ المنمَّقة، والمقاصيرَ المرشَّقة، التي كانت في تلك الديار كبروق السماء إشراقاً وبهجة، يقيِّد حسنُها الأبصارَ، ويجلي منظرُها الهموم، وكأنْ لم تغنَ بالأمس، ولا حلَّها سادةُ الأنس: قد عبث بها الخرابُ، وعمَّها الهدم، فأصبحتْ أوحشَ من أفواهِ السباع فاغرةً، تؤذِّن بفناء الدنيا، وتريك عواقبَ أهلها، وتخبرك عما يصير إليه كل ما قد بقي ماثلاً فيها، وتُزهِّدك فيها.

وكررتُ النظر، ورددتُ البصر، وكدتُ أُستطارُ حزناً عليها، وتذكّرتُ أيام نشأتي فيها، وصبابة لداتي بها، مع كواعبَ غيدٍ، إلى مثلهن يصبو الحليم، ومثلتُ لنفسي انطواءهنّ بالفناء، وكونهنّ تحت الثرى، إثْرَ تقطّعِ جمعنا بالتفرّق والجلاء في الآفاق النائية، والنواحي البعيدة، وصدّقت نفسي عن فناء تلك القصبة، وانصداع تلك البيضة، بعدما عهدته من حُسنها ونضارتها وزِبْرجها وغضارتها، ونضوته بفراقها من الحال الحسنة، والمرتبة الرفيعة، التي رفلتُ في حللِها ناشئاً فيها، وأرعيْتُ سمعي صوتَ الصدى، والبومَ زاقياً بها، بعد حركات تلك المنصدعة بعَرَصاتها، التي كان ليلها تبعاً لنهارها، وفي انتشارها بسكّانها، والتقاء عُمَّارِها، فعاد نهارُها تبعاً لليلها في الهدوء والاستيحاش، والخفوت والإخفاش، فأبكى عيني على جمودها، وقرع كبدي على صلابتها، وهاج بلابلي على تكاثرها، وحرّكني للقول على نبوِّ طبعي، فقلت (الطويل):

سلامٌ على دارٍ رَحَلْنا وغودرتْ
خلاءً من الأهلين موحشةً قَفْرَا

تراها كأنْ لم تغنَ بالأمس بَلْقَعاً
ولا عمرتْ من أهلها قبلنا دَهْرا

فيا دارُ لم يُقْفركِ منّا اختيارُنا
ولو أنّنا نختار كنتِ لنا قَبْرا

ولكنّ أقداراً من اللّه أُنْفدتْ
تدمِّرنا طوعاً لما حلّ أو قَهْرا

ويا خير دارٍ قد تُركتِ حميدةً
سَقَتْكِ الغوادِي ما أجلَّ وما أسْرَا

ويا مُجْتَلَىَ تلك البساتين حَفَّها
رياضٌ قواريرٌ غدتْ بعدنا غبْرا

ويا دهرُ بَلِّغْ ساكنيها تحيّتي
ولو ساكنوا المْروَيْنِ أو جاوزوا النهرا

فصبراً لسطو الدهرِ فيهم وحُكْمِهِ
وإن كان طَعْمُ الصبر مستثقلاً مُرَّا

لئن كان أظمانا فقد طال ما سَقَى
وإنْ ساءنا فيها فقد طالما سرَّا

وأيتها الدارُ الحبيبة لا يَرُم
ربوعك جو المزْنِ يهمى بها القطرا

كأنك لم يسكُنْك غيدٌ أوانسٌ
وصِيدُ رجالٍ أشبهوا الأنجُمَ الزهَرا

تفانَوْا وبادوا واستمرَّتْ نواهُمُ
لمثلهمُ أسكبت مقلتي العبرا

سنصبرُ بعد اليُسْر للعسرِ طاعةً
لعلّ جميلَ الصبر يُعقبنا يُسْرا

وإني ولو عادتْ وعُدْنا لِعَهْدنا
فكيف بِمَنْ مِن أهلها سكن القبرا

ويا دهرَنا فيها متى أنت عائدٌ
فنحمدُ منك العودَ إن عُدْتَ والكرَّا

فيا ربَّ يومٍ في ذراها وليلةٍ
وصلنَا هناك الشمسَ باللهوِ والبدرا

فوا جسميَ المضنَى ووا قلبيَ المغرى
ووا نَفْسِيَ الثكلى ووا كبدى الحرَّا

وياهَمُّ ما أعدى ويا شوق ما أبرا
ويا وَجْدُ ما أشجى ويا بَيْنُ ما أفْرا

ويا دهرُ لا تبعُدْ ويا عهدُ لا تحُلْ
ويا دمعُ لا تجمَدْ ويا سقم لا تبرا

سأندبُ ذاك العَهْدَ ما قامتْ الخضرا
على الناس سقفاً واستقلتْ بنا الغبرا

من المراجع:

1 - ابن حزم الأندلسي، الإعلام بإعلام الإسلام، محمد أبو زهرة، كتاب العربي 99، يناير 2015.
2 - الحب أعزك الله، جهاد فاضل، مجلة العربي 641، إبريل 2012.
3 - طوق الحمامة لابن حزم (الطبعة الخامسة: يناير 1993م) دار المعارف القاهرة – تحقيق: الطاهر أحمد مكي 1975م.
4 - عروبة ابن حزم، جهاد فاضل، مجلة العربي 673، ديسمبر 2014.
5 - رسالة في الأخلاق ومداواة النفوس، لابن حزم. عن طبعة القاهرة 1908 وطبعة الإسكندرية 1913.
6 - كما أورده ابن الخطيب في كتابه "أعمال الأعلام، في من بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام"، ونشره ليفي بروفنسال بعنوان: "تاريخ إسبانيا الإسلامية" الطبعة الثانية، بيروت، 1956، ص:106 - 108.

❑❑